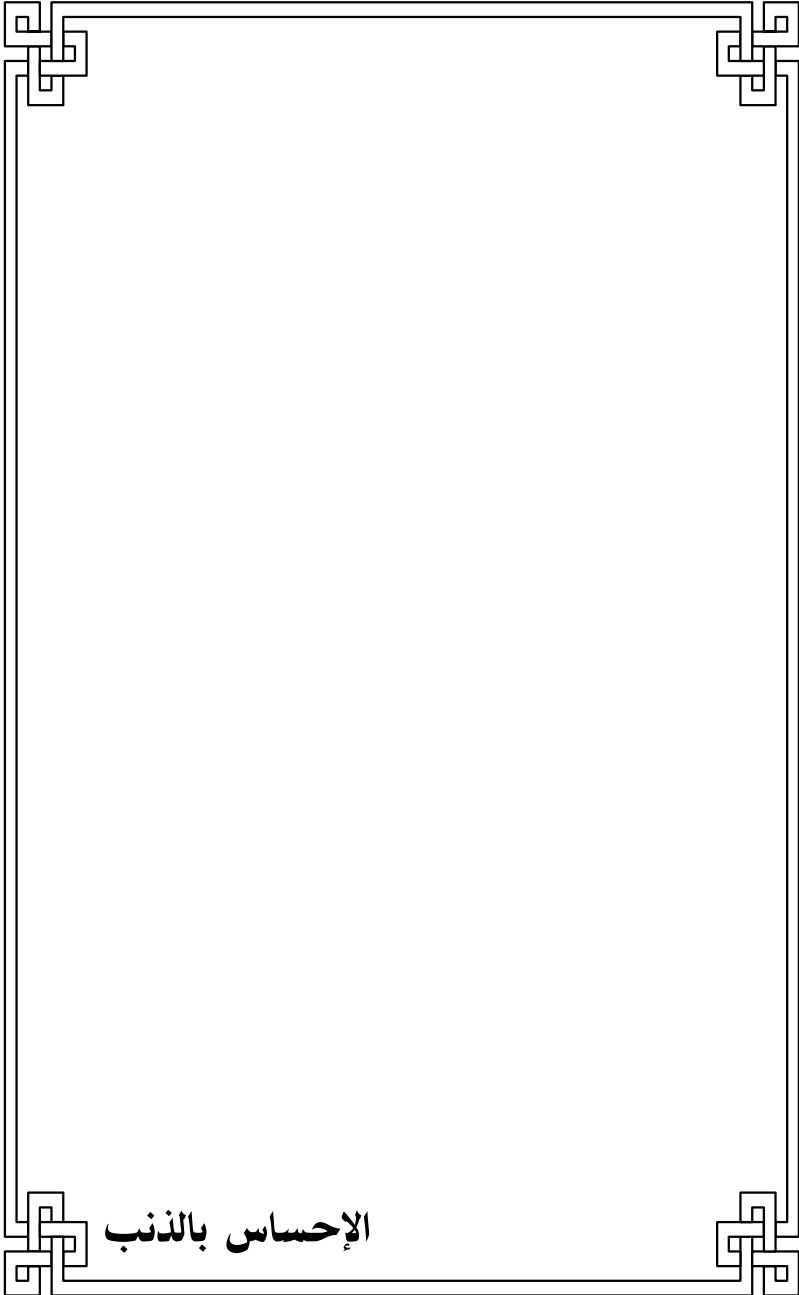


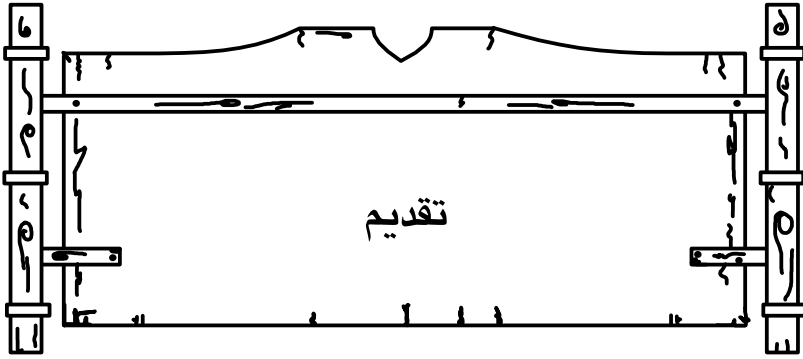


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإحساس بالذنب

د. علي بن حمزة العُمري

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م



مع اختراق طبقة الأوزون بسبب التلوث الكبير الناتج من مداخن المصانع وعوادم السيارات، وخاصة في الدول الصناعية الكبرى؛ تزداد حرارة الشمس لتلهب أراضٍ واسعة في هذا العالم ليزداد الجفاف، ويهلك الحرث والنسل.

هذه الصورة التي يراها أبناء هذا العصر عياناً ولا ينكرونها، تقابلها صورة جفاف أكبر في النفوس بعد اختراق طبقة التقوى والمراقبة، بسبب تلوث النفوس بالمعاصي والانغماس بالشهوات، لتتدفق عبر ذلك الحاجز المثقوب أشعة الغفلة ولهيب القسوة.

فيحدث الجفاف الكبير في الأرواح، ولا منقذ لها إلا قطرات الإيمان، وسيل العزائم والهمم العالية: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

إن سلسلة المنتقى الإيمان التي يكتبها أخي الحبيب د. علي بن حمزة العمري ما هي إلا تحسين لهذا القطر

الإيماني الذي يسبب بإذن الله عودة الانتفاضة لتلك الأرواح الجافة، والعزائم المريضة، والهمم الجامدة.

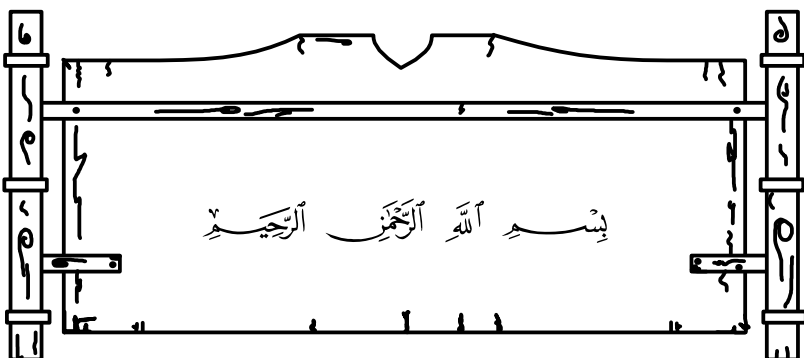
لقد أحسن أخي الحبيب د. علي العمري اختيار الكلمة الطيبة، والعبارة الجميلة، وذلك عبر اختيار المواقف من بطون أمهات الكتب، وربط الماضي بالحاضر باختيار عبارات السلف والمعاصرين من الدعاة، فالجميع ينهلون من منبع واحد.

لقد كانت الريادة للرعي الأول بسبب أخذهم من هذا المنبع الأصيل، ولن تكون لنا ريادة ما لم نقتف آثارهم، «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وسنتي..»^(١).

عبد الحميد جاسم البلالي



(١) أخرج هذا الحديث بألفاظ متقاربة الحاكم في المستدرک (١/١٧١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٥/٩١).



هذه موعظة تربوية إيمانية تمس حياة كل مسلم يؤمن بالله سبحانه وتعالى ويستشعر عظمته ويراقبه ويخافه، ويعلم أنه سبحانه وتعالى مطلع على سريرته، وأنه لا يخلو الإنسان أي خلوة إلا ويعلم الله حاله، فإن كان محسناً ظهرت دلائل الإحسان فيه، وإن كان مسيئاً ظهرت دلائل الإساءة عليه.

ومن رحمة الله تعالى أنه يعفو ويسامح، ويغفر لكل من رجع إليه وآب، ولكنَّ العبد إذا تجرأ عليه ونسي عظمته وتمادى، فإنه قد يمهله ولكن لا يهمله، فلربما أتت عقوبته وكانت جرحاً لا يمكن للإنسان أن يداويه!

وفي الحديث القدسي الذي رواه الديلمي والرافعي، يقول الله تعالى: «يا ابن آدم؛ ما تنصفني؛ أتحبُّ إليك بالنعم وتبغض إليَّ بالمعاصي، خيري مني إليك منزل وشرُّك إليَّ صاعد، ولا يزال ملكٌ كريمٌ يأتييني عنك كلَّ يوم وليلة بعملٍ قبيح، يا ابن آدم؛ لو سمعت وصفك من غيرك وأنت

لا تعلم من الموصوف لسارعت إلى مقتته^(١).

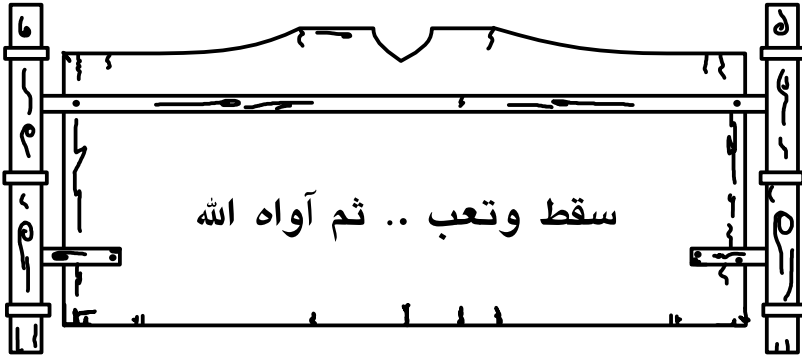
هذا هو الله الرحمن الرحيم بعباده، يعلم أنهم يخطئون
ويذنبون ولكنه سبحانه وتعالى يمهلهم عليهم أن يستغفروا
ويؤوبوا.

الإحساس بالذنب أمرٌ قليل من يتفطن إليه، وتظهر
دلائل الخوف على صاحبه، لتعود النفس إلى بارئها بمجرد
أن تمس ذنباً أو خطيئة.

وقد قيّدتُ رسالة (الإحساس بالذنب) موعظةً لنفسي
وكل مسلم بمداد قلبي قبل مداد قلبي.

أسأل الله أن يمنّ علينا بصلاح القلب، والثبات على
الأمر، والعزيمة على الرشد، وأن يحيينا بمعرفته،
والإحساس بالذنب كلما أخطأنا، وأن يوفقنا للتوبة النصوح.

(١) ورد الأثر في شعب الإيمان برقم (٤٥٨٩) عن مالك بن دينار قال:
قرأت في بعض الكتب أن الله عز وجل يقول: ... إلخ، وعنه أيضاً رواه
أبو نعيم في الحلية (٣٧٧/٢)، وكذلك أبو بكر القرشي في الشكر
(ص ١٩)، وروي في المجالسة وجواهر العلم (ص ٣٧) عن وهب قال:
قرأت في بعض الكتب... إلخ، وكذلك الحلية (٢٧/٤) وفيض القدير
(٤٩٤/٤) وقد ورد مرفوعاً بسند فيه جهالة كما في التدوين (٤/٣) وروي
في الفردوس (٢٣٣/٥) عن علي بن أبي طالب، وهو في كنز العمال
(٣٣٨/١٥). وقد استأنس به المناوي في فيض القدير، وابن القيم في
الزاد وغيره.



إن الإحساس الحقيقي بالذنب يمسُّ شغافَ القلب،
فيوقظُ الغافل، ويُنَبِّهُ الساهي، ويرحمُ النفس الضعيفة، ويعيدُ
الإنسانَ إلى وعيه ورشده ولو كان صالحاً! يترجمُ لنا هذه
المعاني أحد الدعاة قائلاً:

«... كان شاباً صالحاً من أهل الخير والدعوة،
يشتغل بقضايا الناس العامة والخاصة، وعليه طابعُ الربانية
المشرق!.. شاب صالحٌ في عنفوان شبابه، من خيرة الناس
والدعاة والصالح.. قاداته غريزته في لحظة ضعف عارضة،
وغفلة قلب طارئة.. فتورط في معصية، ثم أفاق فجأة
ليجدَ نفسه قد تلوث بعد طهارة، وانحرفَ بعد استقامة،
وغوى بعد رشد!.. وأحسَّ بمرارة المعصية بعد أن ذاقَ
حلاوة الطاعة، فاعتكفَ في بيته أياماً يبكي على نفسه،
ويتقلبُ على جمر الغضى... ضاقتُ عليه الأرض بما
رحبت، وضاقت عليه نفسه، فلم يعد يلقي أحداً، ولا
يخرج من حجرته، حياءً من ربه، وخجلاً من نفسه،

وفِراراً من إخوانه، مع أن أحداً منهم لم يعلم ما حدث له غيري أنا.

فكتبت إليه رسالة أذكره بفضل التوبة والرجاء في مغفرة الله، وذكّرته بحديث الرسول الكريم ﷺ: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»^(١)، وقول علي رضي الله عنه: «سيئة تسوؤك خيراً من حسنة تعجبك»^(٢)، وقول ذاك الصالح: «معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيراً من طاعة أورثت عجباً واستكباراً»^{(٣)(٤)}.

إنه رجع بحمد الله إلى ربه، وآبَ إلى نعمة الإيمان والصلاح، ولكن مرارة القسوة ما زالت في قلبه، إنه مسكين تقيد بالعفة طويلاً، وجربَ خلع القيد، وتذوق مرارة الانزلاق وراء الشهوات، فخاضَ معصيةً، فماذا جنى من لحظة معصية في فترة، وكيف عادت عليه مرارة الندم، وماذا حدث له من قصة مأساوية نفسية؟.

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي برقم (٢١٦٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً، وقال عنه الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، ورواه الحاكم في المستدرک (٣٨٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان (٦٧٢٨).

(٢) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٣٦٨) من كلام هشام بن حسان وروى بمعناه عن مطرف وأبي حازم.

(٣) شرح الحكم العطائية لابن أبي الدنيا (٨٢/١)، وتاريخ بغداد (١٥/٢٠).

(٤) التربية الإسلامية ومدرسة حسن البناء، يوسف القرضاوي (٣٧).

حول هذه الخطيئة يقول أحد الشعراء واصفاً حاله^(١) :

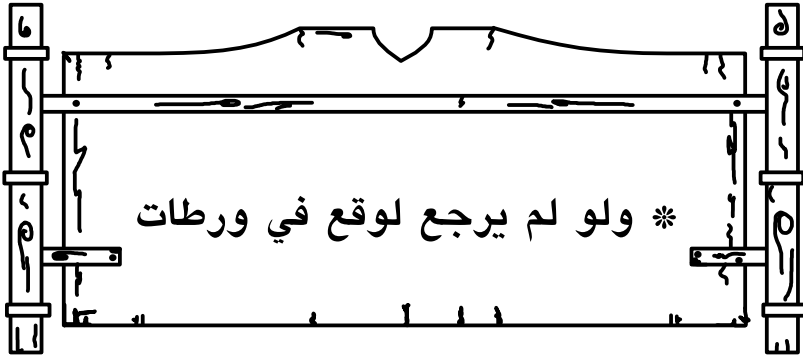
وفي صَمْتِهِ ضَجَّةُ الْأَضْلَعِ
يَلُوكُ الْحَنَايَا وَلَمْ يَشْبَعِ
كَمَا هَدَّدَ الشَّيْخَ صَوْتُ النَّعْيِ
سَوَى هَاتِفِ الْإِثْمِ فِي الْمَسْمَعِ
يَنَادِيهِ مِنْ سَرِّهِ الْمَوْجِعِ
سَوَى اللَّيْلِ أَوْ وَحْشَةِ الْمَخْدَعِ
فَيَرْتَاعُ مِنْ ظِلِّهِ الْأَرْوَعِ
فَمَاذَا يَقُولُ وَمَا يَدَّعِي
أَنَا مُجْرِمُ النَّفْسِ وَالْمَطْمَعِ
خَبِيثُ السَّقَا قَذِرُ الْمَرْتَعِ
فكَانَتْ أَمْرٌ مِنَ الْمَضْرَعِ
فَلَا تَعْتَذِرْ لِي فَلَمْ تُقْنَعِي
جَرِيمَتُهُ وَالْخَطَايَا مَعِي
نَهَايَتُهُ وَهُوَ لَمْ يَهْجَعْ
وَيَنْسَلَّ مِنْ مَبْسَمِ الْمَطْلَعِ
وَعَيْنَاهُ وَالشَّهْدُ فِي مَوْضِعِ
كَسِيرِ الْقَوَى ذَابِلُ الْمَدْمَعِ
وَرَائِحَةُ الْإِثْمِ فِي الْمَضْجَعِ
دُمَاهُ وَفِي حُزْنِهِ يَرْتَعِي

جَرِيحُ الْإِبَا صَامِتٌ لَا يَعِي
وَفِي صَدْرِهِ نَدَمٌ جَائِعٌ
تَهْدَدُهُ صِيحَةُ الذِّكْرِيَّاتِ
وَيُصْغِي وَيُصْغِي فَلَمْ يَسْتَمِعْ
وَلَمْ يَسْتَمِعْ غَيْرَ صَوْتِ الضَّمِيرِ
فِيَشْكُو إِلَى مَنْ وَمَا حَوْلَهُ
كَئِيبٌ يَخُوفُهُ ظُلْمُهُ
وَفِي كُلِّ طَيْفٍ يَرَى ذَنْبَهُ
فَيَمْلِي عَلَى سَرِّهِ قَائِلًا
أَنَا سَارِقُ الْحُبِّ وَحَدِي أَنَا
تَوَهَّمْتُهَا حُلُوةً كَالْحَيَاةِ
أَنَا مُجْرِمُ الْحُبِّ يَا صَاحِبِي
وَلَا لَا تَقُلْ مَعَكَ الْحُبُّ بَلْ
وَمَالَ إِلَى اللَّيْلِ وَاللَّيْلِ فِي
وَقَدْ آنَ لِلْفَجْرِ أَنْ يَسْتَفِيقَ
وَكَيْفُ يَنَامُ أَثِيمُ الْهُوَى
فَأَلْقَى بِجُثَّتِهِ فِي الْفَرَاشِ
تُرَى هَلْ يَنَامُ وَطَيْفُ الْفَجْرِ
وَفِي قَلْبِهِ نَدَمٌ يَسْتَقِي

(١) ديوان البردوني (١٠٢/١).

وفي مُقلتيه دموُعٌ وفي حشاهُ نحيبٌ بلا أذْمُعِ
فماذا يُلاقِي وماذا يُحس وقد دَفَنَ الحُبَّ في البلْعِ
وعادَ وقد أودَعَ السّر من حناياه في شرٍّ مستودِعِ
فماذا يعانِي ألا إنه جريحُ الإبا صامت لا يعي





هكذا عُجلت له العقوبة وأحس بالتعب والألم، وتذوق
مرارة الذل والندم، وأحس بعذاب المعصية!

وشرُّ العذاب عذاب من عاقبه الله وخذله، فلم
يستشعر خطأه، فيحرم حينها أعز وأجل نعمة وهي أن
يستشعر كلام الله. يقول سفيان الثوري رحمه الله تعالى
في قوله جل جلاله: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال: (هم المذنبون
المسرفون المتكبرون في الأرض بغير الحق، يصرف الله
عنهم فَهَمَّ القرآن فلا يتدبرونه)^(١) وهذه من أخطر العقوبات
التي يُعاقب بها الإنسان، أنه يقرأ القرآن فلا يستشعره ولا
يتدبر ما فيه!

ومن العقوبات الخفية الأخرى أنه قد يقع في خطأ ثم
يعود فيه مرة ثانية، كما قال سهل بن عاصم: (عقوبة الذنبِ

(١) ذم الدنيا، لابن أبي الدنيا (١/١٤١).

أن تَذنبَ مرةً أخرى^(١)، وقال محمد بن واسع: (الذنب على الذنب هكذا حتى يُميتَ الله هذا القلب)^(٢)، فهي ذنوب إثر ذنوب، ومعاصٍ إثر معاصٍ حتى تتراكم على صاحبها فيموت قلبه، والعياذ بالله.

ثم إن صاحبَ الذنوب يجد الضنك والحرَج، ليسَ مع نفسه بل حتى مع إخوانه، كما قال خطَّاب العابد رَحِمَهُ اللهُ: (إن العبدَ لِيَذنبُ الذنبَ فيما بينه وبين الله فيجزيه إخوانه فيرون أثر ذلك عليه)^(٣).

ومن العقوبات التي يُعاقب بها هذا الإنسان عندما يُكثر من الخطايا والمعاصي ولا يَسْتشعر ما وصل إليه من حالة أن يُسلب منه قلبه الذي يَسْتشعر من خلاله، كما ذكر سحنون المالكي رَحِمَهُ اللهُ أنه جلس يوماً على شاطئ نهر دجلة، فأخذ عود عصا، فضربَ قدميه وهو يقول بعد أن أخطأ مرةً:

كَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيشُ بِهِ ضَاعَ مِنِّي فِي تَقَلُّبِهِ
رَبِّ فَارَدَدَهُ عَلَيَّ فَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي فِي تَطَلُّبِهِ
وَأَغِثْ مَا دَامَ بِي رَمَقٌ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِ بِهِ^(٤)
ثم إِنَّ ذَلَّ المعصية سَبْقَى يُحِيطُ بِهِ وَيَأْسِرُهُ كُلَّمَا تَحَرَّكَ

(١) العقوبات، لابن أبي الدنيا (٥٨/١).

(٢) المصدر السابق (٥٧/١).

(٣) المصدر السابق (٥٧/١).

(٤) صفة الصفوة، لابن الجوزي (٤٢٧/٢).

من مكان إلى مكان، ومهما حاول أن يفر، أو حاول أن يُسافر أو ينطلق إلى أي ميدان في الحياة فلا بد أن تحيط به هذه الهموم والأكدار، كما قال الحسن البصري: (وإن هَمَلَجَتْ بهم البراذينُ، وَطَقَطَقَتْ بهم البغالُ، إِنَّ ذلَّ المعصية لفي قلوبهم، أبا الله عَجَلًا إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مِنْ عَصَاهُ)^(١).

وذلك أن من أطاع الله تعالى وخافه فقد والاه، ولا يذل من والاه ربه كما في دعاء القنوت «إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت»^(٢).

والمذنب المسرف على نفسه يعيش الليل والنهار في ذل، كما قال سليمان التيمي: (إن الرجل ليذنب الذنب في السر ويظن أن لم يره أحد فيصبح الصباح وعليه مذلة الذنب)^(٣)، فيرى نفسه ضائقة حرجة، علماً أنه فعل ما فعل في السر، ولكن أراد الله سبحانه وتعالى أن يعاقبه على هذه المعصية!.



-
- (١) الجواب الكافي (٣٨/١)، وإغاثة اللهفان، لابن القيم (٤٨/١).
- (٢) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (٢٤٨/٣)، وابن ماجه (١١٧٨) عن الحسن بن علي رضي الله عنه قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: «اللهم اهْدني فيمن هديت...» الحديث. قال الترمذي: هذا حديث حسن. اهـ.
- (٣) العقوبات، لابن أبي الدنيا (٥٨/١).



ثم أن العقوبة ليست في الدنيا وحدها، بل إن العقوبة في الآخرة، يراها ويستشعرها، ولولا عقوبة الآخرة، ولولا ما فيها من ألم وأحزان وأكدار لفعل الإنسان ما فعل في الدنيا، ولكن لأن ذل المعصية مصاحب في الدنيا، وعقوبتها آجلة في الآخرة حرص فقهاء القلوب وملوك الآخرة على تربية نفوسهم وتقييدها بطاعة الله، ومن هنا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقاه لم يصنع ما يريد، ووالله يا قوم لولا يوم القيامة لكان غير ما ترون)^(١).

وسر تفاوت حب الناس وقبولهم لأي إنسان، إنما هو لنيته الصالحة، وما يكتفه في نفسه من أسرار العبودية والخشية والصدق مع الله.

فالأمر ليس بكثرة العمل، إنما الأمر بما وقر في القلب!

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٤/١٨٤).



وإذا ما قلت ذنوب الإنسان، واستشعر خطرهما فإن الله يبارك له في خطواته، ويريه بمحض فضله خيراً كثيراً، وأعظم هذا الخير أن يرق القلب، وترتاح النفس؛ فيعيش الإنسان حياة طيبة، تبشر بعاقبة أطيّب بدرجات يوم الآخرة؛ كما قال الإمام مكحول رحمه الله : (أرق الناس قلوباً أقلهم ذنباً)^(١). وهذا قانون من قوانين الإيمان لا يمنحه الله إلا لمجاهدي النفوس، والمتذللين لعلام الغيوب.

وإن هذا التوفيق منحة ربانية للمتقين تظهر دلائلها وأسرارها، يخبرنا بتجارب هذا القانون التربوي رجل من قريش يروي عن أحد شيوخها الصالحين قائلاً:

«كان شيخ هاهنا من قريش سريع الدمعة كثيراً وعلمته من المتجهدين، كان قليل الآثام، معتزلاً للأنام، فذكرته يوماً لبعض مشايخه.

(١) العقوبات، ابن أبي الدنيا (٧٥/١).

فقلت له: إن هذا الشيخ يقوم الليل طويلاً ووالله ما أظن إلا أنه اقترف إثماً قليلاً، ثم هو يبكي الدهر.

فقال لي الرجل: ما ينبغي أن يكون مثله قليل الذنب إلا هكذا، يفتح الله على قلبه فيكون ندي العينين دهرًا.

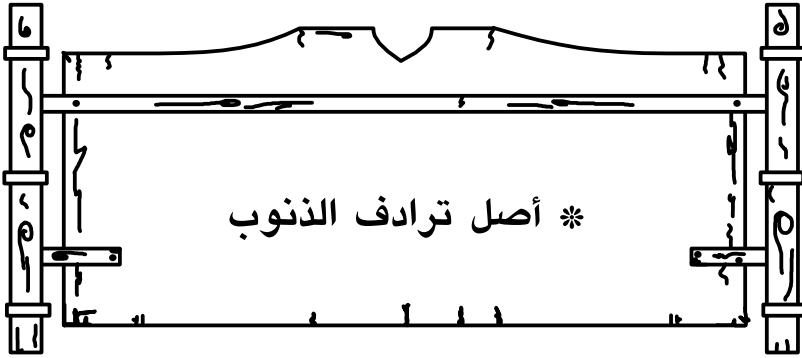
قلت: وكيف ذاك؟

قال: لأن البدن إذا عري عن الذنوب دقَّ، فكذلك القلب إذا قلت خطاياهُ رَقَّ^(١).

فهذه رحمت وتوفيقات ونفحات من الله جل جلاله يفتح بها على قلب هذا الإنسان، فكلما قلت الذنوب والمعاصي كلما رق القلب وارتاح الضمير.



(١) الرقة والبكاء، لابن أبي الدنيا (٧٥).

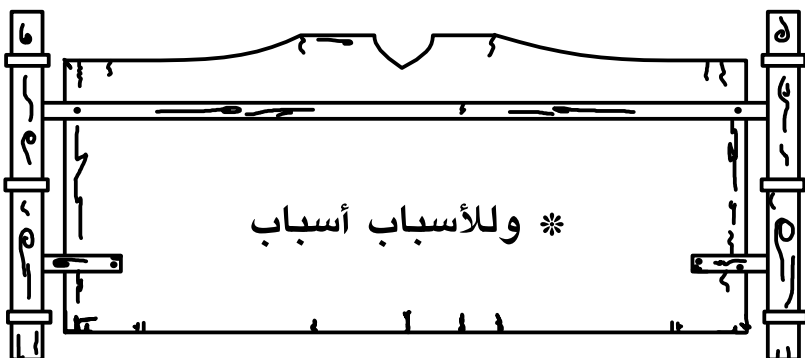


وهذه الذنوب المتراكمة التي نستشعرها بين فينة وأخرى لها أسباب أدت إلى تراكمها حتى أصبحت كالجبل في القلب. يقول أحد الصالحين: (أصل ترادف الذنوب وكثرتها إغفال مراقبة الله، وإهمال محاسبة النفس، وتأخير التوبة، والتسوية بالاستقامة، وترك الاستغفار والندم)^(١).

وما نعلم أعظم من رسول الله ﷺ عندما «كان يستغفر الله في اليوم واللييلة أكثر من سبعين مرة»^(٢)، فهو رجل غفرت له ذنوبه كلها ما تقدم منها وما تأخر، ومع ذلك يُعلم الأمة أنه يستغفر الله ﷻ هذا الاستغفار الكثير.

(١) الجواب الكافي (٨٢/١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٤٨) عن أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إنني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» وفي رواية عند مسلم (٢٧٠٢) عن الأغر بن يسار المزني ؓ مرفوعاً: «إنه ليغان على قلبي وإنني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة». (ليغان): قال أهل اللغة: الغين والغيم بمعنى واحد والمراد هنا ما يتغشى القلب. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٧٥٩/٣).



إن هذه الأسباب الخمسة ينتجها حب الدنيا وإيثارها على أمر الله تعالى، وغلبة هوى النفس، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧].

وَكَمْ سمعنا وشاهدنا وعاشنا من يفعلون المنكرات، ويتجاوزون الحدود، ويقتحمون الحمى، ويعطلون شرع الله، فإذا ما ذُكِّروا، حوَّلوا أخطاءهم لغيرهم، وتذرَّعوا بغلبة الجنِّ على تصرفاتهم وحماقاتهم! ولو أنهم ستروا أنفسهم، وعادوا إلى ظلال التوبة، وجلسوا مع أنفسهم لحظات صدق، لما طالت غربتهم، ولا هانت عليهم أنفسهم، ولم تستسلم جوارحهم، ولا غاب عن حسهم يوماً ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَفَّعُ﴾ [الطور: ٧].

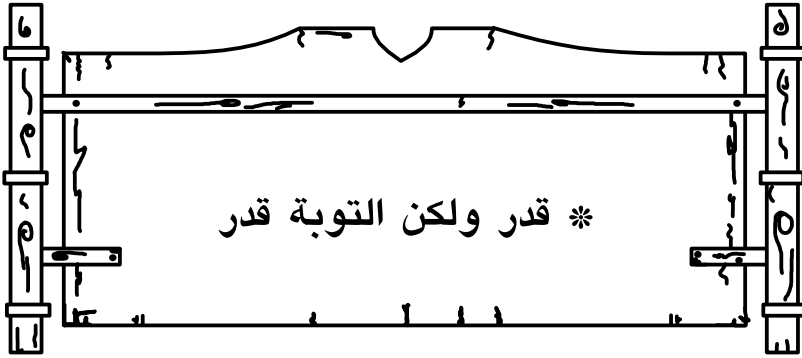
ولن ينجوا من الكره في الدنيا، والسَّامة في النفس، والمساءلة في الآخرة إلا إذا فتشوا في أسباب هلاكهم، ومداخل شياطينهم، وحينها فقط سيدخلون في سلك المؤمنين

الذين جعلوا رقابة الله ثم رقابة النفس أولى أعمالهم، وهي سر فلاحهم وسعادتهم وحب الخلق لهم.
أولئك الذين يعيشون معنى الرقابة الربانية حباً وسترًا وحماية، بل وتسلية ومودة:

كأن رقيباً منك يرعى خواطري	وآخر يرعى ناظري ولساني
فما نظرت عيناى دونك منظراً	لغيرك إلا قلت قد رمقاني
ولا بدرت من فيّ بعدك لفظة	لغيرك إلا قلت قد سمعاني
ولا خطرت من ذكر غيرك خطرة	على القلب إلا عرجا بعناني
إذا ما تسلى القاعدون عن الهوى	بذكر فلان أو كلام فلان
وجدت الذي يسلي سواي يشوقني	إلى قربكم حتى أمل مكاني
وإخوان خير قد سئمت حديثهم	وأمسكت عنهم خاطري ولساني
وما البغض اسلى عنهم غير أنني	وجدتك في كل الجهات تراني ^(١)



(١) رحلة إلى الجنة، لطف الله حاتم، (٧٣).



إن هذه الذنوب والمعاصي لا بدّ للإنسان من الوقوع فيها كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبدٍ مؤمنٍ إلا وله ذنبٌ يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا، إنّ المؤمنَ خلق مفتنًا تواباً نساءً، إذا ذُكِرَ ذُكِرَ»^(١). كأنها مطاردات شيطانية يحاول أن يوقعه في الفخ، ولكن الخطير هو الاستمرار والإصرار، فهذا الخبر النبوي يصرح بأن الذنب الذي كان يلزم عليه العبد هو بين فينة وأخرى، كلما أخطأ العبد استغفر الله ﷻ فيعود مرة ثانية فيستغفر، ثم يعود مرة ثالثة فيعاوده الذنب، وهذا هو معنى المجاهدة، وبالتالي يعامله الله على قدر مجاهدته، وعلى قدر نيته وحرصه على أن لا يقع في الخطأ.



(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٤٥٧) وفي الأوسط (٨٩/٦)، والبيهقي في الشعب (٤١٩/٥) عن ابن عباس ؓ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٧٦).



روى مسلم في صحيحه^(١) عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً للجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها؛ رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها، فيعرض عليه صغار ذنوبه فيقال له: عملت يوم كذا، كذا وكذا وعملت يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه، فيقال له: فإنَّ لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها هاهنا». قال أبو ذر: «رأيت الرسول ﷺ يضحك وبدت نواجذه».

ومن لطف الله أن نعلم أن هذا العبد لما أخطأ في المعاصي وزلَّ في هذه الدنيا ولم يكن غافلاً عن الله وأنه يعلم ذنوبه وخفاياه، وأنه أخطأ وغلبته نفسه وهواه، ومع هذا فهو خائف مشفق من يوم الحساب، فإن الله سبحانه وتعالى يريه حينها لطفه ورحمته، فيقلب تلك السيئات إلى حسنات،

(١) صحيح مسلم (١/١٩٠)

ويعامله بالحسنى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ويتجدد معنى الخوف من يوم الحساب وأثره في عمل الإنسان كما في خبر النبي ﷺ المروي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبيته: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم اذروني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً فلما مات فُعلَ به ما طلب، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك، ففعلت، فإذا هو قائم.

فقال: ما حملك على ما صنعت؟

قال: خشيتك يا رب.

فغفر له»^(١).

هكذا بكل جلاء ووضوح عندما يصل الإنسان إلى درجة الاستشعار أن الله جل جلاله يعلم حاله ويعلم أخطائه وإسرافه وذنوبه وتعديده، ولم يَنْسَ الله وقدرته، فإنه قريب حينئذ من رحمة الله، وهذا ما حداه أن يعترف بكل خوف وذلة قائلاً: «خشيتك يا رب».

إنها خشية الخوف والرجاء، خشية الندم والفضيحة،

(١) البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٧٥٦).

خشية القوة والعظمة، خشية الغضب والعقوبة، خشية السؤال والحساب، خشية الموقف والمصير، خشية المَلِك الجبار، «خشيتك يا رب» وكفى.

ومن آثار هذه الخشية الخوف من أن يأتي يوم القيامة وللناس عليه حجة في إيقاعهم في الذنب، واستدراجهم إليه.

وهذا ما نبّه إليه الإمام سفيان الثوري بقوله: (لأن أذنب سبعين ذنباً فيما بيني وبين الله أهونُ عليّ من أن أذنب ذنباً واحداً فيما بيني وبين الناس)^(١).

وفي الحديث الصحيح: «بينما كلب يطبق بركية كاد يَقْتُلُه العطش إذ رآته بغِيٌّ من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به»^(٢).

إنها امرأة بغِي، امرأة متعدية، ولكن قد يكون منها الخوف، والذل لله سبحانه وتعالى. وما يدري الإنسان متى تصيبه رحمة الله، وكل قلوبنا بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء!

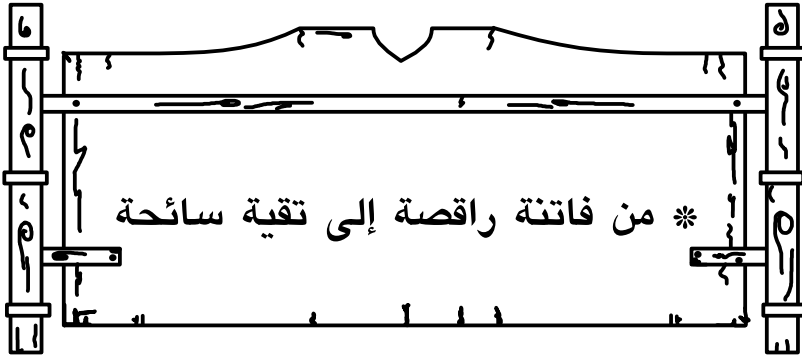
وهذا ما يجعلنا نلج بالاستغفار والتوبة، والإطراح بين يدي الله ﷻ، نسأله الثبات والرحمة، والتجاوز عن الخلل، ونكرر ذلك مرة ومرتين كل يوم وندعو:

(١) قصر الأمل، لابن أبي الدنيا (٢/١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٨٠)، ومسلم (٢٢٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إلهي تحمّلنا ذنوباً عظيمةً أسأنا وقصّرنا وجُودُكَ أعظمُ
سترنا معاصينا عن الخلقِ جملةً وأنت ترانا ثم تعفو وترحم
لك الحمدُ عامِلُنَا بما أنت أهلُهُ وسامح وسلّمنا فأنت المُسلّمُ
نقولها مع الخشية والانكسار، ثم مع تمام الضراعة
والتوسل، فإذا نزلت منا دمة كان نزولها إذنًا لنا أن نأمل
ونطمع فيما عند الله.





يضرب لنا أحد الصالحين الأخيار من العلماء المحدثين في بلاد الشام الشيخ العلامة بدر الدين الحسني مثلاً في حسن الدعوة للمعرضين، وأن الله سبحانه وتعالى لم يغلق بابه عن أحد من الناس.

في شهر رمضان قال الشيخ لبعض تلاميذه: اذهبوا إلى مرقص سأخبركم عنه، وهناك امرأة تعمل فيه، فسلموا عليها وأبلغوها بأنَّ الشيخ يطلب الدعاء منك!، فذهب مجموعة من طلابه، فطرقوا الباب فخرجت امرأة.

فلما رأت العمائم والثياب قالت: ماذا تريدون؟

قالوا: نريد فلانة.

ف قالت: ما شأنكم بها؟

قالوا: هنالك رسالة من شيخنا الشيخ بدر الدين الحسني لها.

فجاءت هذه المرأة وقد التحفت بملابسها وسألتهم عن سبب المجيء.

قالوا لها: شيخنا بدر الدين الحسيني يسلم عليك ويقول لك: ادعي لنا!!

يا للعجب، إنها امرأة مخطئة عاصية ولكنها تنتظر من يدلّها على الله، فلما سمعت هذه المقولة سقطت دموعها، فكانت توبتها بعدئذ برحمة الله.

كيف استشعر هذا العالم الجليل أن مسؤولية الداعية ليست إيذاء المذنبين - وإن استحقوا ذلك - بل مسؤوليته هي سلوك السبيل الأقرب إلى تحصيل الفائدة المرجوة، وأهم هذه الفوائد معرفة الله.

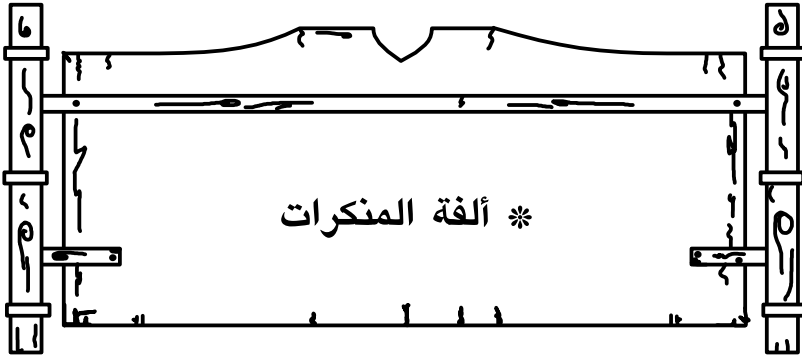
إنه يستشعر أن هؤلاء أخطؤوا وأسرفوا فجاء دوره ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وجاء في موطأ الإمام مالك أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَانَ يَقُولُ: «لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَتُقَسِّسُوا قُلُوبَكُمْ. فَإِنَّ الْقَلْبَ الْقَاسِيَ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ. وَلَا تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ. وَانْظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَأَنَّكُمْ عَبِيدٌ. فَإِنَّمَا النَّاسُ مُبْتَلَى وَمُعَافَى. فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلَاءِ وَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى الْعَافِيَةِ»^(١).

(١) الموطأ (٩٨٦/٢) وورد مثل هذا عن النبي ﷺ بلفظ: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي». أخرجه الترمذي (٢٤١١) عن ابن عمر رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

إِنَّ الشعور بالذنب والإحساس بالخطأ البوابة الأولى من
أبواب التوبة، والطريق الأول من طرق الأوبة والعودة
إلى الله.





إن الإحساس بالذنب ينافي الإصرار؛ فإن السبب الذي يجعل الإنسان يخوض في المعاصي ويكررها ويتابعها، وينسى قدرة الله وعظمته وأن الله مطلع عليه، هو ألفة المنكرات والمعاصي فيصبح القلب مستأنساً بها، ومن هنا قال أبو الحسن الزيات رَحِمَهُ اللهُ : (والله لا أبالي بالمنكرات والبدع، وإنما أخاف من تأنس القلب بها)^(١).

فالبدع والمنكرات خطيرة، ولكن الأخطر من وجودها أن يقبلها الإنسان، ويستأنس بها، ويظنها أمراً عادياً؛ لأن الأشياء إذا توالى مباشرتها أنست بها النفوس، وإذا أنست النفوس بالمعصية قل أن تتأثر بغيرها. هكذا يُبتلى الإنسان فيعيد المعصية تلو المعصية حتى يآلفها القلب ولا يظن أنه فعل شيئاً، يؤخر الصلاة عن وقتها كأن الأمر شيء طبعي، يخطئ في حق إخوانه، يمد يده عليهم أو يكذب أو يغتاب،

(١) الرضا عن الله وقضائه، لابن أبي الدنيا (١/٦٥).

يختلي بنفسه في خطأ ويتجرأ بنظرة محرمة وتتمادى نفسه
وكان شيئاً لم يكن!!

ولذا قال ابن الجوزي في كلام خطير: (اعلم أن من
أعظم المحن على القلب الاغترار بالسلامة بعد الذنب؛ فإنَّ
العقوبة من الله تتأخر وقد تكون العقوبة في سلب الدين
وطمس القلب وسوء الاختيار للنفس، فيكون من آثارها
سلامة البدن وبلوغ الأغراض)^(١).

فهو يحقق أعماله كلها، قد ينجح في دراسته، قد يجد
من يسلم عليه ويثني عليه، قد يجد شيئاً من هذا، ولكنه لا
يحس بالطمأنينة، والراحة النفسية، وتغره الأعمال الظاهرة
فينسى ما فاتته من أجر، ولا يستشعر أن هذا الحرمان من
الأجر عقوبة من الله.

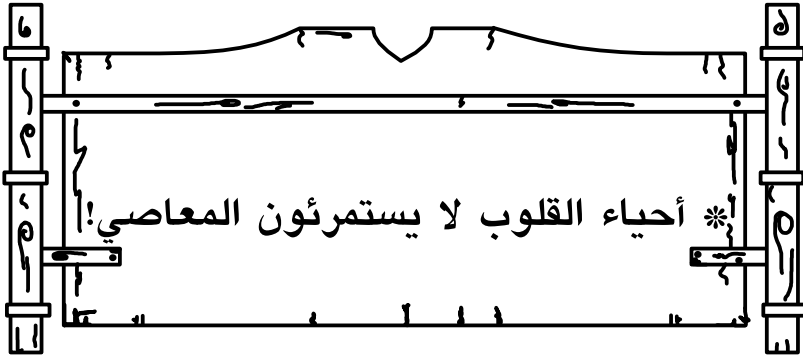
وللعقوبة أحزان تبعث برسائلها لمن أراد أن يتذكر:
«ومن أمثال العقوبات التي يعاقب بها بعض الصالحين أن لا
يوفق البعض لصلاة الفجر والعصر زمناً طويلاً حتى يألف هذا
الذنب ويألف تلك العقوبة، فما يعود يشعر بوخز الضمير
والم الذنب بينما كان الرعيل الأول يعود بعضهم البعض
عندما تفوت أحدهم صلاة الجماعة.

(١) صيد الخاطر (١/١٨١).

ومن تصل فيه الحال إلى درجة انعدام الإحساس بعقوبة
الذنب فهذا على خطأ كبير، إذ ربما أدى ذلك إلى ضلاله
ورجوعه إلى طريق الخطأ، لأن (الذنوب جراحات وربّ
جُرح وقع في مقتل)^(١).



(١) الفوائد (١/٤١).



وكان السلف عليه السلام إذا أخطأ أحدهم يعتريه الخوف الحقيقي ويخشى على حسناته من الضياع، لذا: (كانوا أصحاب قلوب يقظة لا يعرف الران إلى قلوبهم سبيلاً، وما أفسد شيء من حب الدنيا أجهزة الإحساس في قلوبهم بل إن إحساس أحدهم بالذنب يصل به إلى أن يتذكر ذنباً أذنبه قبل أربعين سنة، ما زال يحس بآثره)^(١).

روى عُبيد الله بن السَّري قال: قال ابن سيرين: (إني لأعرف الذنب الذي حُمِّل عليَّ به الدِّين ما هو. قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس، فحدثت به أبا سُلَيْمَانَ الدَّارَاني فقال: قَلَّتْ ذُنُوبُهُمْ فَعَرَفُوا مِنْ أَيْنَ يُؤْتَوْنَ، وكثرت ذنوبي وذنبك فلسنا ندرى من أين نؤتى)^(٢).

وقال محمد بن سَعْد: (سألتُ الأنصاريَّ عن سببِ

(١) واحات الإيمان، البلالي (٢٩).

(٢) صفة الصفوة (٢٤٦/٣).

الَّذِينَ رَكِبَ مُحَمَّدٌ بْنُ سِيرِينَ حَتَّى حُجِسَ؟ قَالَ: اشْتَرَى طَعَامًا بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا، فَأَخْبِرَ عَنْ أَصْلِ الطَّعَامِ بِشَيْءٍ، فَكَرِهَهُ فَتَرَكَهُ أَوْ تَصَدَّقَ بِهِ، فَحُجِسَ عَلَى الْمَالِ^(١).

وقال هشام: ترك محمد أربعين ألفاً في شيءٍ ما يرون به اليوم بأساً.

هكذا كان الجيل الأول يعرف المداخل الحقيقية التي عليه، ويتذكر ذنوبه القليلة ولو قبل أربعين سنة، ويحس بآلمها، لأنها كانت معصية لله. وما يستطيع أحد منا أن يتذكر ذنباً مضت عليه كل هذه السنين إلا رجل قد قلت ذنوبه فاستطاع أن يحصيها، لذلك عندما أخبر عبيد الله بن السري أبا سليمان الداراني بذلك قال: (قَلْتُ ذُنُوبَهُمْ فَعَرَفُوا مِنْ أَيْنَ يُؤْتُونَ، وَكَثُرَتْ ذُنُوبِي وَذُنُوبُكَ فَلَسْنَا نَدْرِي مِنْ أَيْنَ نُؤْتَى)^(٢).

هكذا كانوا يحسون بالذنوب بربطه بالبلاء الذي يصيبهم، فقد روي عن أحد السلف: (أَنْ رَجُلًا شَتَمَهُ فَوَضَعَ خَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذَّنْبَ الَّذِي سَلَطْتَ هَذَا بِهِ عَلَيَّ)^(٣). إنها درجة إيمانية راقية، جعلته يربط ما أصابه من سب وشتم بذنوب ربما وقع فيه!^(٤).

(١) جامع العلوم والحكم (١١٠/١).

(٢) صفة الصفوة (٢٤٦/٣).

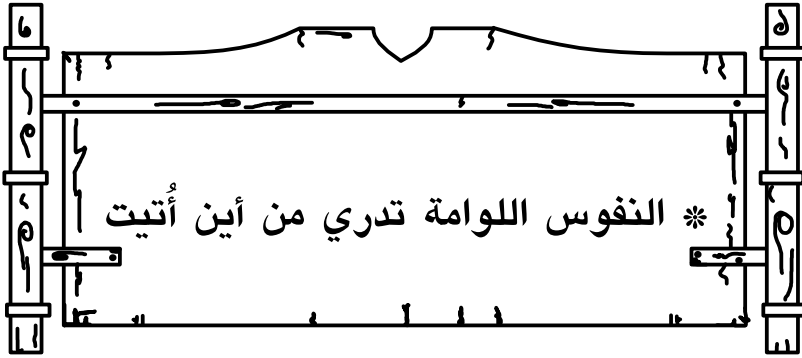
(٣) العقوبات، لابن أبي الدنيا (٦٤/١).

(٤) واحات الإيمان (٢٩).

وَيْكَ يَا قَلْبُ، أَيُّ وَهْمٍ عَرَاكَ فَتَغَاضَيْتِ لَاهِيًّا عَنْ هُدَاكَ
وَتَجَرَّأْتَ فِي ارْتِيَادِ الْمَعَاصِي حِينَمَا غَاصَ فِي الْمَعَاصِي سَوَاكَ
اتَّقِ اللَّهَ أَيُّهَا الْقَلْبُ، وَاحْذَرِ إِنَّ رَبَّ السَّمَاءِ حَيَّ يَرَاكَ^(١)



(١) سليم زنجير، ديوان نعيم الروح (١٥٢).



وكانوا حتى إذا لم يوفقوا لطاعة الله وَعَلَيْكُمْ ربطوا ذلك بذنوب ربما اقتترفوه، فعن أبي داود الحفري قال: (دخلت على كرز بن وبرة بيته فإذا عيناه تدمعان، فقليل له: ما لك؟ فقال: إن بابي لمغلق، وإن ستري لمسبل، ومنعت جزئي أن أقرأه البارحة، وما هو إلا من ذنب أذنبته)^(١).

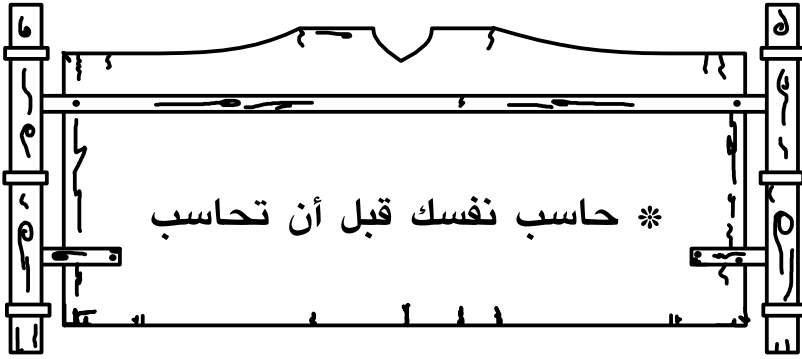
إن حرمان قراءة جزء من القرآن كل يوم هو بسبب الذنب، ولا يحتاج الأمر إلى طول توسع. إنه قانون إيماني واضح، إما الطاعة وإما المعصية، إما الذل وإما الإكرام من الله جل جلاله، لماذا يوفق قوم فيقرأون الجزء والجزأين والثلاثة والخمسة كل يوم؟ ولماذا لم يوفق البعض حتى في ركعتين من قيام الليل؟ وما ذلك إلا لأن استشعار مراقبة الله في قلوبهم دائمة.

إن استشعار الذنب ليس فقط في المعصية الظاهرة كأن

(١) صفة الصفوة (٣/١٢٢).

تخلو بحرام، أو أن تقول حراماً، أو أن تفعل حراماً، ولا هو فقط في ترك الطاعة المقتصرة عليك كأن تفرط في فرض من فروض الأعيان. كَلَّا. إن استشعار الذنب في ذلك كله، ولكنه يتعداه إلى العبادات الدعوية والأعمال الخيرية، في تأخرك عن الطاعة، وفي تأخرك عن الإقدام لنصرة المسلمين، وفي ترك معاونة الأخيار على البر والتقوى بعد ما أمرك الله بذلك، وفي خذلانك لإخوانك المسلمين. ومن كان أكثر مراقبة كان أكثر محاسبة.





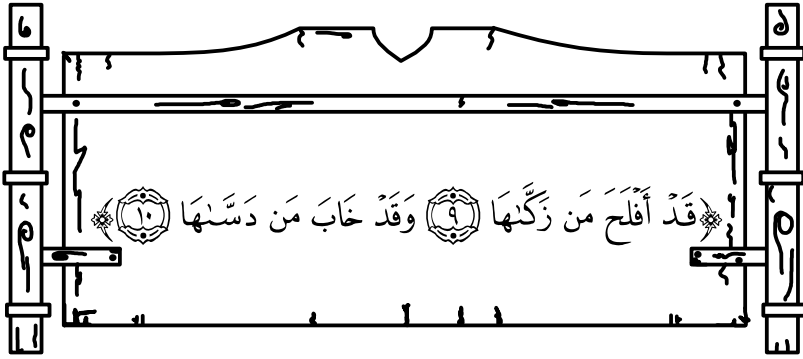
هَلَّا جَلَسْتَ مَعَ نَفْسِكَ يَوْمًا بَعِيدًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ
بأنواعهم وأشكالهم، جَلَسْتَ مَعَ نَفْسِكَ مُتَجَرِّدًا مِنْ كُلِّ اعْتِبَارٍ
سِوَى مُرَاقَبَةِ مَالِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ الَّذِي
يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ، فِي هَذِهِ الْخُلُوةِ
لَوْحَدِكَ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، سَلْ نَفْسَكَ: «كَمْ سَنَةٍ مَضَتْ
عَلَيْكَ وَأَنْتَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ؟ كَمْ مِنَ الْبَشَرِ اهْتَدَى بِسَبَبِكَ؟
كَمْ مِنْ كَلِمَةٍ تَكَلَّمْتَ؟ كَمْ مِنْ خَاطِرَةٍ أَلْقَيْتَ؟ كَمْ مِنْ حَوَارٍ
حَاورْتَ؟ كَمْ مِنْ بَشَرٍ دَعَوْتَ؟ كَمْ كِتَابًا قَرَأْتَ؟ كَمْ كِتَابًا
وَزَعْتَ؟ كَمْ شَرِيطًا اسْتَمَعْتَ؟ كَمْ شَرِيطًا أَهْدَيْتَ؟ كَمْ مَجْلِسًا
حَضَرْتَ؟ كَمْ خُطْبَةً اسْتَمَعْتَ؟ كَمْ مِنْكَرًا أَنْكَرْتَ؟ كَمْ مَعْرُوفًا
أَمَرْتَ؟ كَمْ جَمَاعَةً صَلَّيْتَ؟ كَمْ يَوْمًا صَمْتَ؟ كَمْ خَتَمَةً مِنَ
الْقُرْآنِ خَتَمْتَ؟ كَمْ لَيْلَةً أَحْيَيْتَ؟ كَمْ نَصِيحَةً اسْتَجَبْتَ؟ كَمْ
دَرْسًا دَرَسْتَ؟ كَمْ عِدَّةً زِيَارَةً لِلْمَقَابِرِ زَرْتِ؟ كَمْ مِيتًا شِيعْتَ؟
كَمْ صَدَقَةً فِي الْيَوْمِ تَصَدَّقْتَ؟ كَمْ مَظْلُومًا نَصَرْتَ؟ كَمْ مَرَّةً
حُجَجْتَ وَاعْتَمَرْتَ؟ كَمْ ضَعِيفًا سَاعَدْتَ؟ كَمْ مِنَ النِّوَافِلِ
أَدَيْتَ؟ كَمْ وَكَمْ وَكَمْ؟.

ثم إن سألت نفسك فعليك أن تستشعر ولو فعلت من الطاعات ما فعلت كم مما فعلته من الخير كان منه منافسة للآخرين أو إبرازاً لعملك أو ممارسة لسفهاء أو مجازاة لعلماء أو لتُصرفَ وجوه الناس إليك؟ كم كان منها لله وكم كان منها لغير الله؟^(١). وصدق الله إذ قال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ورحم الله الإمام ابن الجوزي لما قال: (قل لمن لا يخلص: لا تتعب نفسك)^(٢).



(١) وقفات تربوية، البلالي (٦٣).

(٢) المدهش، لابن الجوزي (٥١٤/١).



إن من أهم علامات حفظ المؤمن لإيمانه خوفه على حسناته وانشغاله بعيوب نفسه، فإنه إذا لم يكن مشغولاً بها وكان مشغولاً بأخطاء الآخرين فإن هذا دلالة على عدم توفيق الله له، وإهماله لأخطائه وذنوبه فلا يصححها.

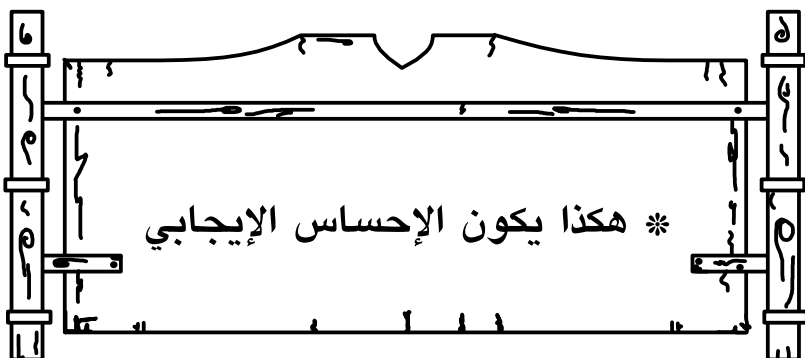
ولذا قال الحسن عليه السلام: (ابن آدم إنك لن تُصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيوبك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا)^(١).

فكثير من الأخيار اليوم منشغلون بالردود غير النافعة، متعقبون للأخطاء، مصنفون للناس، يحرمون الآخرين من الفضيلة والخير. كم من داعية بسببهم حرم من محاضرة

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر (١٦٧/٢٠) والصمت، لابن أبي الدنيا (١٣١/١).

وخطبة؟ وحرّم من قراءة كتاب، أو من جلسة مع مصلح؟
ولئن استجاب لكلماتهم قومٌ غُرُوا بهم، فإن عدل الله قائم،
وسنته ثابتة في أن البقاء للأصلح، وأن العاقبة للمتقين.





وحتى يتدارك المؤمنون أمرهم، فعليهم أن يتعلموا متواضعين على هدي سلفهم في حقيقة حزنهم وأسفهم على أنفسهم لا على غيرهم.

وهذا ما تعلمه من مدرسة أبي إسحاق السبيعي - رَحِمَهُ اللهُ - فعن أبي بكر بن عيَّاش قال: (قال أبو إسحاق: ذهبت الصلاة مني وضعفت وإنِّي لا أصلي فيما أقرأ وأنا قائم إلاَّ بالبقرة وآل عمران. وكان رَحِمَهُ اللهُ يقول: ما أستطيع أن أستوي قائماً حتى أعتمد على رجلين، وإذا اعتدلت قائماً قرأت بألف آية)^(١).

وكان عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قبل أن يصاب بأيام بالمدينة واقفاً على حُذيفة بن اليمان، وعثمان بن حُنيف يقول: «يُخَافُ أَنْ تَكُونَا حَمَلْتُمَا الْأَرْضَ مَا لَا تَطِيقُ - يعني مقدار الخراج الذي فرضاه على من يستغل الأرض - قالَا:

(١) التهجد وقيام الليل، لابن أبي الدنيا (١/١٩٥).

حملناها أمراً هي له مطيقة، وما فيها كثير فضل، فقال: انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق، فقالا: لا، فقال: لئن سلمني الله لأدعنّ أرامل أهل العراق لا يحتجن بعدي إلى أحد، قال: فما أتت عليه إلا أربعة حتى أصيب^(١).

هذا هو الإحساس الإيماني لتلمس حاجات المؤمنين، ولو بعدت المسافة، فعمر بن الخطاب كان يسكن في المدينة المنورة بعيداً عن العراق ومشاكل العراق وحاجات أهل العراق، ومع ذلك كان مهتماً بشؤون المسلمين، ولهذا قال لهما: لئن سلمني الله لأدعنّ أرامل أهل العراق لا يحتجن بعدي إلى أحد. وما قال ذلك إلا لأنه يحس أن كل مسلم وكل مسلمة في تلك الديار البعيدة هو مسؤول عنهم، يستشعر حالهم ويحس بمسئوليتهم، وبالتالي فإن أي إخفاق وأي خطيئة وأي بعد عن تلبية حاجات المرأة الضعيفة يعدّه عمر ذنباً يستحق أن يعاقب نفسه عليه، بل ويعاقب من ولاهم على شئونهم!

ويتواصل استشعار الخطأ في الغفلة عن الطاعة كما في خبر الجنيد رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: سمعت السري السقطي يقول: (فاتني جزءٌ من وِردِي، فلا يمكنني قضاؤه - يعني: لاستغراق أوقاته -)^(٢)، مع أن أوقاته عامرة بالخير، ولكنه مع

(١) تاريخ الخلفاء (٣١٦/١).

(٢) طريق الهجرتين، لابن القيم (٤٦٥/١).

ذلك يتأسف على ضياع ورده تلك الليلة. ويبقى إحساس فوات الأجر هو شغله الشاغل طوال الليل، وياليت شعري ما هو حال الكثير منا في الليل وقبل النوم، بأي شيء يفكرون ويتخيلون؟!

وذكر ابن القيم الجوزية عن بعض الصالحين أنه ذهب يوماً إلى صلاة الجمعة فانقطع شسع نعله، وهو في طريقه لصلاة الجمعة، فأطرق ملياً ثم قال: (إنما انقطع نعلي لأنني لم أغتسل غسل الجمعة)^(١). وهكذا كانوا يربطون ما أصابهم بغفلتهم عن سُنّة ربما تركوها، فكيف بمن غفلوا عن الواجبات ونسيان الله في الخلوات؟

وفي الخبر أن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أرسلت رسالة إلى معاوية بن أبي سفيان قالت: «أما بعد: فإن العبد إذا عملَ بمعصية الله تعالى عادَ حامِدهُ من الناس دَماً»^(٢). فلا تنتظر أن يحمّدك الناس ويثنوا عليك ويقبّلوا رأسك ويدك إذا كنت تعمل معصية في خلوتك لوحّدك، والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم بما تعمل!!

ومهما تَكُنْ عند امرئ من خَلِيقَةٍ وإن خالها تخفَى على الناس تُعَلِّمَ وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: (إن الرجل

(١) مدارج السالكين (٢/٤٦٧).

(٢) روضة المحبين (١/٤٤١)، والجواب الكافي (١/٣٤).

ليُذنب الذنب فيصبح وعليه مذلتة^(١).

ويصل المستوى الإيماني بسعيد التنوخي رحمه الله تعالى إلى درجات عالية قلَّ من يصل إليها فقد قال محمد بن المبارك: (أتيت يوماً سعيد بن عبدالعزيز التنوخي فإذا هو يبكي، فقلت: ما لك؟ قال: فأتني صلاة العشاء جماعة)^(٢). لقد فاتته صلاة العشاء جماعة فاستحق أن يبكي على حاله ونفسه لأنه حرم الخطوات من بيته إلى المسجد، فكل خطوة ترفعه درجة، وتمحو عنه سيئة. فما بال دعاة اليوم يتأخرون عن الصلوات المكتوبة في جماعة، ويتركون التجاوب مع نداء «حي على الفلاح» لغيرهم، نسوا الصفوف الأول وشهود الملائكة، ويريدون أن يكونوا قدوة للناس وهم في آخر الصفوف، ثم ينتظرون التأثير؟!!

وإلى هؤلاء نبأ الإمام الذهبي في الكبائر^(٣). عن عبيد الله بن عمر القواريري رحمته الله قال: (لم تكن تفوتني صلاة العشاء في الجماعة قط فنزل بي ليلة ضيف فشغلت بسببه وفاتتني صلاة العشاء في الجماعة فخرجت أطلب الصلاة في مساجد البصرة فوجدتُ الناس كلهم قد صلوا وغلقت المساجدُ فرجعت إلى بيتي ثم نمتُ فرأيت في المنام كأني

(١) العقوبات، لابن أبي الدنيا (٥٨/١).

(٢) إحياء علوم الدين (١٤٩/١).

(٣) (١٧/١).

مع قوم على خيل وأنا أيضاً على فرس ونحن نستبق وأنا أركض فرسي فلا ألحقهم فالتفت إليّ أحدهم فقال لي: لا تتعب فرسك فلست تلحقنا: قلت: ولم؟ قال: لأننا صلينا العشاء في جماعة وأنت صليت وحدك فانتبهت وأنا مغموم حزين لذلك).

فلنعد إلى حقيقة أنفسنا، ولنعاهد الله على الجد في العبادة، والخوف من غرور النفس، وإلا فإن أم المؤمنين عائشة فاضحتنا بحقيقتنا، وذلك حينما سألتها عقبة بن صهبان قال: (يا أم المؤمنين، ما تقولين في قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٣].

قالت: يا بُني هؤلاء في الجنة، أما السابقون في الخيرات فمن مضى على عهد رسول ﷺ وشهد له رسول الله بالجنة والرزق، وأما المقتصدون فهؤلاء الذين اتبعوا أثرهم من الصحابة ومن لحق بهم، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك^(١).

ويصل الإمام الجليل العابد الزاهد بشر الحافي إلى مستوى إيماني عال قلّ من يصل إليه، كما قال أحد السلف: (كان بشر الحافي يبسط يديه للسؤال فما إن يرفعهما إلا

(١) إغاثة اللهفان (١/٨٦).

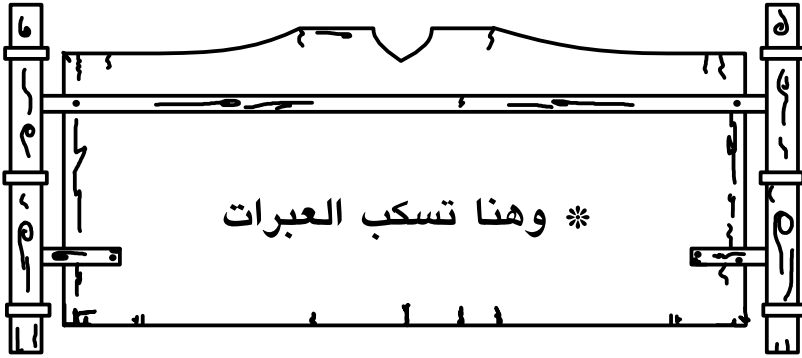
وينزل يديه في الدعاء، فيرفع يديه يريد أن يدعو فينزلهما مرة أخرى، فيرفع يديه ثلاثة فينزلهما، سمعته يقول: يا رب مثلي لا يسأل؛ إذ ما أبقت الذنوب لي وجهاً أسألك^(١).

أحبك حقاً وأحيا بحبك ولكن عمري كثير الذنوب
أحبك حقاً وأغفي حياءً إذا سرّح الوهم فيما يعيب
ومازلت أخطئ في كل يوم وأزعم أنني غداً سأتوب
وأين غدي إن عمري يضيع وقد آذنت شمسهُ بالغروب
فهل غرني منك صفح وحلم وهل غررت بي حياة لعوب
ويصطرع الخوف بي والرجاء ويشغل روحي سؤال دؤوب
إذا غبَّت ذات دجى في التراب ولا ريب في أنني سأغيب
وإن جئت تسألني عن حياتي فماذا أقول؟ وكيف أجيب؟^(٢)



(١) صيد الخاطر (١٢٨).

(٢) سليم زنجير، ديوان نعيم الروح (٣٢).



يقول العباس بن عبد المطلب عليه السلام: (كنت جاراً لعمر بن الخطاب فما رأيت والله أحداً أفضل من عمر، إن ليله صلاة، وإن نهاره صيام، وهو في حاجات الناس ليلاً ونهاراً، فلما توفي سألت الله أن يرنيه في النوم، فجاء النوم ورأيت عمر مقبلاً من سوق المدينة فسلمت عليه وسلم عليّ، ثم قلت: كيف أنت؟ قال: بخير، قلت: ما وجدت؟ فقال عمر: الآن حين فرغت من الحساب، ووالله كادَ عرشي يهوى لولا أنني وجدت ربّاً رحيماً^(١). فعلى كل واحد منا أن يحس دائماً بخطورة كل ذنب وقع فيه أيّاً كان، حتى لا تتراكم عليه الذنوب، فيجد الحساب عسيراً، «فإن الأمل سلطان الشيطان على قلوب الغافلين». حكمة قالها بشر الحافي - رحمه الله - يعلمنا من خلالها أنك: (يا هذا هب أنك لا تخاف، ويحك ألا تشاق)؟!^(٢). فإذا كنت تفعل ما تفعل من

(١) صفة الصفوة (٢٩٣/١)، والروح (٢٢/١).

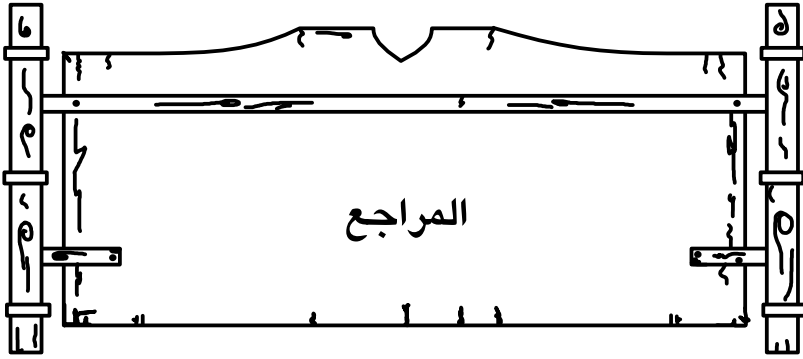
(٢) ذم الهوى، لابن الجوزي (٢١/١).

الذنوب وأنت لا تخاف من المعصية ولا تخاف من العقوبة السريعة، ويحك ألا تشتاق لربك وجنة خالقك؟ ألا تشتاق لمولائك الذي أنعم وتفضل عليك؟ ألا تشتاق إليه وقد زين لك الجنة وجعل لك فيها «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١)؟ ويحك ألا تشتاق إلى ربك فإن كل نظرة وكل خطرة وكل معصية منعتك عن ربك إنما هي ذلٌ في الدنيا وذلٌ في الآخرة:

وَهَبَكَ رُزِقْتَ الْعَفْوَ عَنْ كُلِّ زَلَةٍ فَأَيْنَ مَقَامُ الْعَفْوِ مِنْ مَقْعَدِ الرِّضَا



(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٩)، ومسلم (٤٨٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.



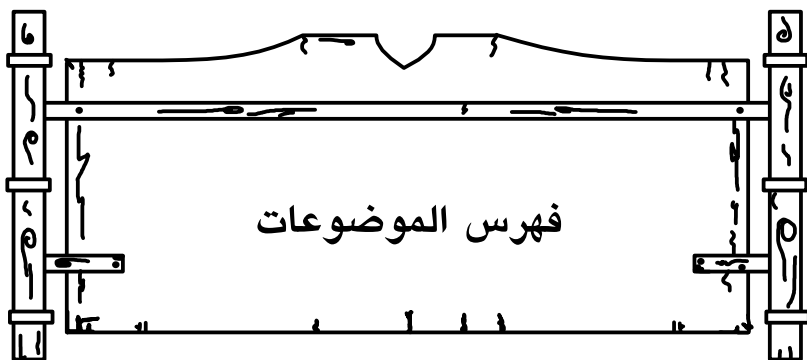
- ١ - إحياء علوم الدين، لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة، بيروت.
- ٢ - إغائة اللفهان، لابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد فقي، دار المعرفة، بيروت، ط٢ (١٤٢٠هـ).
- ٣ - تاريخ الخلفاء، للسيوطي، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط١ (١٣٧١هـ).
- ٤ - تاريخ بغداد، لأحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٥ - تاريخ دمشق، لابن عساكر، دار البشير.
- ٦ - التهجد وقيام الليل، لابن أبي الدنيا، تحقيق: مصلح بن جزاء الحارثي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١ (١٤٢٤هـ).
- ٧ - الجواب الكافي، لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٨ - حلية الأولياء، لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، (١٤٠٥هـ).
- ٩ - ديواني البردوني.
- ١٠ - ذم الدنيا، لابن أبي الدنيا.
- ١١ - ذم الهوى، لعبدالرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج بن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبدالواحد.

- ١٢ - الرضا عن الله وقضائه، لابن أبي الدنيا، تحقيق ضياء الحسن السلفي، دار السلفية، بومباي، ط ١، (١٤١٠هـ).
- ١٣ - الروح، لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٣٩٥هـ).
- ١٤ - روضة المحبين، لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٢هـ).
- ١٥ - سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، مكتبة المعارف، الرياض.
- ١٦ - سنن ابن ماجه، لمحمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت.
- ١٧ - سنن أبي داود، لسلمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (١٤١٦هـ).
- ١٨ - سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى، أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاکر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٩ - سنن النسائي، لأحمد بن شعيب بن علي النسائي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط ٤، (١٤١٤هـ).
- ٢٠ - شرح الحكم العطائية.
- ٢١ - شعب الإيمان، لأحمد بن حسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (١٤١٠هـ).
- ٢٢ - الشکر، لأبي بكر القرشي.
- ٢٣ - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان أبو حاتم البُستي، ترتيب: علاء الدين بن بلبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، (١٤١٨هـ).
- ٢٤ - صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط ٣، (١٤٠٧هـ).

- ٢٥ - صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقى.
- ٢٦ - صفة الصفوة، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، ود. محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، (١٣٩٩هـ).
- ٢٧ - الصمت، لابن أبي الدنيا، تحقيق: أبو إسحاق الجويني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، (١٤١٠هـ).
- ٢٨ - صيد الخاطر، لأبي فرج ابن الجوزي، دار المنارة، جدة، تحقيق: علي الطنطاوي.
- ٢٩ - طريق الهجرتين، لابن القيم الجوزية، دار ابن القيم، الدمام، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، ط ٢، (١٤١٤هـ).
- ٣٠ - العقوبات، لابن أبي الدنيا.
- ٣١ - الغيبة والنميمة، لابن أبي الدنيا.
- ٣٢ - الفوائد، لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، (١٣٩٣هـ).
- ٣٣ - فيض القدير، للمناوي، دار المعرفة.
- ٣٤ - قصر الأمل، لابن أبي الدنيا.
- ٣٥ - الكبائر، للإمام الذهبي، دار الندوة الجديدة، بيروت.
- ٣٦ - كنز العمال، لعلي بن حسام الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٩٨٩م).
- ٣٧ - المجالسة وجواهر العلم، الدينوري.
- ٣٨ - مدارج السالكين، لابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، (١٣٩٣هـ).
- ٣٩ - المدهش، لابن الجوزي، تحقيق: مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، (١٩٨٥م).
- ٤٠ - المستدرک، لمحمد بن عبدالله، أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (١٤١١هـ).

- ٤١ - مسند الفردوس، للدليمي، تحقيق: سعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٤٢ - المعجم الأوسط، للطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، (١٤١٥هـ).
- ٤٣ - المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٤٢٢هـ).
- ٤٤ - الموطأ، لمالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر.
- ٤٥ - النهاية في غريب الحديث، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري الشهير بابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي، المكتبة العلمية، بيروت، (١٣٩٩هـ).





الصفحة

الموضوع

مقدمة المؤلف	٧
* تقديم الشيخ: عبد الحميد جاسم البلالي	٩
* سقط وتعب .. ثم آواه الله	١٣
* ولو لم يرجع لوقع في ورطات	١٦
* أشد وأنكى وأبقى	١٧
* قوم تعجلوا الرقة	١٩
* أصل ترادف الذنوب	٢٠
* وللأسباب أسباب	٢٢
* قدر ولكن التوبة قدر	٢٣
* لنفسه بغى الخير	٢٧
* من فاتنة راقصة إلى تقية سائحة	٣٠
* ألفة المنكرات	٣٣
* أحياء القلوب لا يستمرئون المعاصي!	٣٦
* النفوس اللوامة تدري من أين أتيت	٣٨
* حاسب نفسك قبل أن تحاسب	٤٠
* ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ﴿١٠﴾	٤٢
* هكذا يكون الإحساس الإيجابي	

الموضوع	الصفحة
* وهنا تسكب العبرات	٤٨
المراجع	٥٠
فهرس الموضوعات	٥٤

